الأحداث التاريخية التي وقعت بقصر رأس التين

أحمـــد فرج عبد الحميـــــد
كلية السياحة – جامعة المنيا.

يعتبر قصر رأس التين من أهم القصور الملكية تاريخياً، نظراً لأنه القصر الوحيد الذي عاصر قيام حكم أسرة محمد على منذ بدايتها في عصر محمد على وشهد فترات ازدهارها وقوتها، وحتى انتهائها بخلع الملك فاروق وتوقيعه على مرسوم خلعه من حكم مصر في يوليو ١٩٥٢م، وكان قصر رأس التين هو المقر الصيفي لجميع حكام الأسرة العلوية[١].

لذا سوف أتناول عدد من أهم الأحداث التي كان مسرحها قصر رأس التين وبالفعل كان لها كبير الأثر في تغيير مجرى تاريخ مصر المعاصر.

-وفاة محمد على بقصر رأس التين (٢ أغسطس ١٨٤٩م):

لا شك أن محمد على باشا هو مؤسس مصر الحديثة، وصانع نهضتها ومنذ توليه حكم مصر انتقلت مصر من مرحلة التأخر والجمود إلى طريق التقدم والحداثة، لذا كان حدث وفاته مثلما كانت حياته ذو أهمية كبيرة وحدث فارق في تاريخ مصر الحديث، ونسرد ملابسات وفاته بشيء من التفصيل حيث أنه حدث بعد تكتل القوى الدولية بالتعاون مع الدولة العثمانية ضد محمد على كرد فعل لنجاحات محمد على المتلاحقة في التمدد بالدولة المصرية حتى أصبح على مشارف الآستانة،أن أصدرت تلك الدول معاهدة لندن عام١٨٤٠م والتي نصت على إعطاء محمد على حكم مصر حكماً وراثياً وجنوب الشام مدى الحياة، و أن يسلم ما عدا ذلك[٢].

بعد انسحاب الجنود المصرية من بلاد الشام وفصل الأخيرة عن مصر وعودته للدولة العثمانية بدعم دولي كبير أصيب محمد على باشا بحالة من جنون الارتياب، وأصبح مشوش التفكير شيئا فشيئا وصار يعانى من صعوبة التذكر، ومما

زاد من أمراض وتعب محمد على هو مرض ابنه الأكبر وقائد جيوشه إبراهيم باشا عام ١٨٤٥م بمرض السل ورغم أنه أرسله إلى ايطاليا للعلاج، إلا أنه أدرك أن ابنه ووريث عرشه معرض للوفاة في أي وقت وهذا ما اتضح مما قاله للسلطان العثماني عندما زار الآستانة في سنة ١٨٤٦م حيث عبر عن خوفه من ضياع إنجازاته حيث قال " ولدى عجوز عليل وعباس متراخ كسول من عساه يحكم مصر الآن سوى الأولاد، وكيف لهؤلاء أن يحفظوها "، وبعد ذلك عاد محمد إلى مصر وبقى والياً حتى اشتدت به الشيخوخة، وبحلول عام ١٨٤٨م، كان قد أصيب بالخرف و أصبح توليه عرش مصر أمراً مستحلا، فعزله أبناؤه وتولى إبراهيم باشا إدارة الدولة.

حكم إبراهيم باشا مصر طيلة ٦ أشهر قبل أن يتمكن منه المرض وتوافيه المنية (١٠ نوفمبر ١٨٤٨م) فخلفه،عباس حلمي، وبحلول هذا الوقت اشتد المرض بمحمد على ولم يبلغ بوفاة ابنه إبراهيم باشا[٣].

توفى محمد على يوم (٢ أغسطس ١٨٤٩م/١٣رمضان ١٢٦٥هـ) بقصر رأس التين، فنقل جثمانه إلى القاهرة، حيث دفن في الجامع الذي كان قد بناه بالقلعة، وكانت جنازة محمد على بسيطة جدًا، لم يدعوا للمشاركة فيها أياً من قناصل الدول أو الوزراء، حيث لم يشارك فيها والى مصر نفسه آنذاك عباس حلمي نظرا لأنه كان دائم الخلاف مع جده ومع إبراهيم باشا[٤].

قصر رأس التين يشهد تنصيب سعيد واليا وكذلك يشهد وفاته (١٨ يناير ١٨٦٣م):

عقب مقتل عباس باشا الأول أراد بعض أفراد الأسرة المالكة تنصيب ابنه على العرش بالمخالفة لنص الفرمان السلطاني الذي ينص على تولى أكبر الأبناء الحكم، وكان في ذلك الوقت هو سعيد باشا الذي كان وقتها في الإسكندرية، وعندما عرف بهذا الأمر لم ينتظر عودته للقاهرة لاعتلاء العرش، فتم تنصيبه من سراي رأس التين، فكان أول وآخر والى يعلن عن اعتلائه العرش من هذا القصر ،فسعيد باشا ابن

محمد على الكبير، حيث نشأ في حجر أبيه، فاختار له والده السلك البحري، كان سعيد باشا ملاصق لـ(فريناند ديلسيبس) فنشأ محبا لأوروبا، وخلف ابن أخيه عباس حلمي الأول عام ١٨٥٤م، وكان قريباً من المصريين ومحببا لديهم، بخلاف ابن أخيه الوالي الذي سبقه عباس حلمي باشا ولعل أهم أعمال سعيد باشا هو إنشاء الشركة العالمية لقناة السويس البحرية في (نوفمبر ١٨٥٤م)، ولكن ما يؤخذ عليه هو أن فترته شهدت بداية التدخل الأجنبي في مصر، وكذلك بدأت في عهده الديون الخارجية لتصل بنهاية فترة حكمة إلى عشرة ملايين جنيه.[٥].

لم يستمر سعيد باشا طويلا في الحكم، حيث أصيب بمرض عضال اضطر معه السفر إلى أوروبا، ولكنه فشل في الاستشفاء من مرضه وعاد إلى الإسكندرية في أواخر عام ١٨٦٣م، حيث مكث في قصر رأس التين حتى وافته المنية بالقصر في صباح (٢٧رجب ١٢٧٩هـ/١٨ يناير ١٨٦٣م)، وكان عمره ٤٢ سنة، حيث كانت مدة حكمه ثماني سنوات وتسعة أشهر[٦].

صدرت الأوامر من القاهرة بسرعة دفن جثة الوالي سعيد باشا بالإسكندرية وبسرعة ولا يتم نقله إلى القاهرة حتى لا يتمكن مرض الناسور الذي توفى بسببه من جسده، وقضت تلك الأوامر بأن يكون مدفن الوالي بجانب مدفن إسكندر المقدوني ومدافن البطالسة، كنوع من التقدير والإجلال له ولكي يكتسب التقدير أمام الأجيال القادمة.

وحدث بالفعل أن تم مواراة جسد سعيد باشا في مرقده، في الروضة المسورة في سفح قلعة الديماس بجوار المسجد المعروف باسم مسجد (النبي دانيال)، بجوار قبر والدته عين الحياة قادين، ومازال قبر الوالي سعيد باشا حتى الآن في نفس مكانه بالإسكندرية[٧].

- زيارة السلطان عبد العزيز ونزوله بقصر رأس التين (أبريل ١٨٦٣م شوال ١٢٧٩هـ):

بدء إسماعيل حكمه بالتودد إلى السلطان العثماني عبد العزيز، فلما تولى إسماعيل الحكم ذهب إلى الآستانة ليقدم فروض الطاعة والولاء، واستغل هذه الزيارة لإحكام روابط الود بينه وبين تركيا، ودعاه إلى زيارة مصر فوعده بقبول الدعوة.

وبالفعل قام السلطان عبد العزيز في(ابريل ١٨٦٣م شوال ١٢٧٩هـ)، بزيارة مصر، ونزل بالإسكندرية حيث أقام بقصر رأس التين عدة أيام، حيث أبدى إعجاباً شديداً بالقصر، ثم ذهب إلى القاهرة، وقضى في ضيافة إسماعيل عشرة أيام، لقي فيها الكثير من مظاهر الكرم والحفاوة وهو ما جعل لإسماعيل منزلة كبيرة لديه، واغتنم إسماعيل هذه المنزلة وجني كثيرا من المكاسب، ولعل أهم تلك المكاسب هو تغيير نظام توارث العرش، حيث سعى إسماعيل أن يؤول العرش إلى أكبر أنجاله ونجح في مسعاه وذلك بفرمان من السلطان (٢٧ مايو ١٨٦٦م)[٨].

هذا وقد عنى الخديوي إسماعيل بقصر رأس التين ومنحه الكثير من الاهتمام، ويتضح ذلك من الإرادة التي أصدرها إلى خورشيد باشا محافظ الإسكندرية في ذلك الوقت نصها " حيث أنه اقتضى عقد مقاولة بمعرفة لينان بك لعمل الأشغال اللازمة لقصر رأس التين، فعندما يتم عقد العقد المذكور نرسل إلى طرفكم أن تعتمدوا عليه، وتصرفا المبالغ المقتضى صرفها بموجبه لأصحاب الاستحقاق من خزانة كمرك الإسكندرية طبقاً للأصول".[٩]

-الخديوي توفيق يستقبل قائد الأسطول الإنجليزي في قصر رأس التين (١٣ يوليو ١٨٨٢م):

انتهزت انجلترا في عام ١٨٨٢م قيام السلطات المصرية بتقوية القلاع والتحصينات على البحر المتوسط وقامت بتوجيه إنذار في (١٠ يوليو١٨٨٢م) إلى

قائد حامية الإسكندرية بوقف عمليات التحصين، وإنزال المدافع الموجودة بها خلال ٢٤ ساعة وإلا سيتم ضرب الإسكندرية.

ولما رفضت الحكومة المصرية هذه التهديدات قام الأسطول الإنجليزي في اليوم التالي بضرب الإسكندرية وتدمير قلاعها وتدمير أجزاء من الإسكندرية، واضطر كثير من الأهالي للهروب من المدينة، وواصل القصف لليوم التالي، فاضطرت المدينة إلى التسليم ورفع الأعلام البيضاء، فاضطر أحمد عرابي إلى التحرك بقواته إلى كفر الدوار، وإعادة تنظيم الجيش هناك(١٠).

حاصرت القوات الانجليزية قصر رأس التين، وبدلا من أن يقاوم الخديوي المحتلين، استقبل قائد الأسطول البريطاني (بوشامب سيمور)، حيث جعل نفسه وحكومته رهن تصرفهم، وأرسل الخديوي إلى أحمد عرابي في كفر الدوار يأمره بالكف عن الاستعدادات الحربية ويحمله تبعة احتلال الإسكندرية ويأمره بالمثول لديه في قصر رأس التين ليتلقى منه التعليمات.

وبذلك كان قصر رأس التين أول مكان وطأت فيه أقدام قوات الاحتلال البريطاني لمصر في (١٣ يوليو١٨٨٢م) لتشهد تلك المنطقة بدايات الاحتلال الإنجليزي الذي استمر ٨٤ عاماً.

-عباس حلمي الثاني يصل قصر رأس التين قادماً من أوروبا لتولى عرش مصر:

توفى الخديوي محمد توفيق في (٧ يناير١٨٩٢م) في مدينة حلوان حيث توفى بالحمى الوافدة و كان عمره حينها أربعون عاماً، وبعد وفاته آل عرش مصر إلى ولى العهد ابنه عباس حلمي الثاني، حيث كان الخديوي الجديد حينها في النمسا يتلقى تعليمه هناك، و أمضى بها ستة أعوام، فتم على الفور استدعائه للحضور إلى مصر من فيينا، وتم إعلان السلطان بذلك، فقام السلطان عبد الحميد الثاني إلى إسناد منصب الخديوية في(٨ يناير ١٨٩٢م)(١١).

في (٩ يناير ١٨٩٢م) أبحر عباس حلمي الثاني من مدينة "تريستا" ووصل الخديوي في بعد رحلة شاقة في (١٣ يناير سنة ١٨٩٢م) إلى ميناء الإسكندرية وكان في استقباله الأمير حسين كامل السلطان فيما بعد"، والوزراء في مقدمتهم رئيسهم مصطفى باشا فهمي، وكذلك كان في استقباله علماء الأزهر، كبار الموظفين، وقناصل الدول وكبار التجار، حيث انتقل الخديوي إلى قصر رأس التين للاستراحة من رحلة السفر الطويلة، فجرت التشريفات داخل القصر حيث حظي أولا بمقابلة رجال الدين، ثم قناصل الدول، ثم ضباط السفن الحربية الراسية في الميناء، وأعضاء المجلس البلدي فرؤساء المصالح الحكومية، وتوجه الخديوي بعد إقامته بقصر رأس التين إلى القاهرة ليتقلد عرشه رسمياً.

حيث تم استقباله استقبالا حافلاً من قبل الجماهير التي احتشدت بالآلاف في محيط قصر عابدين، كما كان في انتظاره عدد من أسرة محمد على والوزراء والأعيان وكبار التجار.

- استخدام قصر رأس التين كمستشفى أثناء الحرب العالمية الثانية:

سمح الملك فاروق بأن يستخدم قصر رأس التين كمستشفى لعلاج جنود الاحتلال الإنجليزي، وكذلك مقرا لقيادة القوات البحرية أثناء الحرب العالمية الثانية والتي اشتعلت في (سبتمبر ١٩٣٩م)، وقد أدى ذلك إلى استغلال القصر أسوء استغلال من قبل الاحتلال، وأدى إلى تلف الكثير من أساس مقتنيات القصر الثمينة، واستمر الانجليز يسيطرون على القصر حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية[١٢].

- الملك فاروق يوقع وثيقة التنازل عن عرشه بقصر رأس التين:

دعا تدهور الحالة في مصر على جميع الأصعدة، فكان نتيجة ذلك أن قام مجموعة الضباط الأحرار بالتحرك لإنقاذ البلاد من تلك الحالة وقاموا في ليلة (٢٣يوليو١٩٥٢م) بالسيطرة على القاهرة سيطرة تامة، والسيطرة على قيادة الجيش،

واستيقظ الشعب على هذا الحدث الكبير فقامت المظاهرات في جميع أنحاء مصر ابتهاجا بنجاحها، ولمن قاموا بها، وأعلنت الهيئات تباعاً تأييدها للثورة وكانت جامعة الإسكندرية أول تلك الهيئات التي أعلنت تأييدها.

في هذا الوقت كان الملك فاروق والوزارة والقائد العام للقوات المسلحة موجودين بالإسكندرية، وعند علمهم بما حدث في القاهرة، اجتمعوا على الفور واتفقوا على تلبية مطالب الجيش، ومن جانبه فوجئ الملك فاروق بما حدث، وكان يقيم بالمنتزه، فقرر التوجه بأسرته وحاشيته إلي قصر رأس التين حيث وسائل الدفاع والتحصينات أفضل وحيث يرسو يخت المحروسة لمغادرة البلاد إن في هذا الأثناء وبعد أن سيطر الضباط الأحرار على القاهرة توجهوا صوب الإسكندرية، حيث رأى قادة الثورة أن يتدرجوا في المطالب حتى يقبلها الملك، فكانت أولى مطالبهم تكليف على ماهر بتشكيل الوزارة، فوافق الملك على الفور.

ثم طلبوا من الملك أن يتخلص من ٦ من حاشيته، فلما استجاب لهذا الطلب أيضًا، وكان بذلك خطتهم تسير بنجاح، حيث طلبوا بعد ذلك بخلع الملك.(١٣)

وفى(٢٦يوليو عام ١٩٥٢م) توجه القائد العام محمد نجيب إلى مقر الوزارة بالإسكندرية؛ حيث التقي على ماهر وقدما له إنذار يحمله إلى الملك فاروق يطالبونه بالتنازل عن العرش وكان هذا نصه "من اللواء أركان حرب محمد نجيب باسم ضباط الجيش ورجاله إلى الملك فاروق الأول أنه نظرًا لما لاقته البلاد في العهد الأخير من فوضى شاملة عمت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور وامتهانكم لإرادة الشعب حتى أصبح كل فرد من أفراده لا يطمئن على حياته أو ماله أو كرامته. ولقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم في هذا المسلك حتى أصبح الخونة والمرتشون يجدون في ظلكم الحماية والأمن والثراء الفاحش والإسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقير، ولقد تجلت آية ذلك في حرب فلسطين وما تبعها من فضائح الأسلحة الفاسدة وما ترتب عليها من محاكمات تعرضت لتدخلكم السافر

مما أفسد الحقائق وزعزع الثقة في العدالة وساعد الخونة على ترسم هذا الخطأ فأثرى من أثرى وفجر من فجر وكيف لا والناس على دين ملوكهم.

لذلك قد فوضني الجيش الممثل لقوة الشعب أن أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش لسمو ولي عهدكم الأمير أحمد فؤاد على أن يتم ذلك في موعد غايته الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم السبت الموافق ٢٦ يوليو ١٩٥٢ والرابع من ذي القعدة سنة ١٣٧١ ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه"، والجيش يحمل جلالتكم كل ما يترتب على عدم النزول على رغبة الشعب من نتائج".[١٤]

حيث توجه على ماهر بهذا الإنذار إلى الملك فاروق بقصر رأس التين ليبلغه بهذا الإنذار ونصحه بضرورة الموافقة عليه، وقد تردد الملك في بادئ الأمر وفكر في المقاومة ولكنه وجدها غير مجدية فالشعب أصبح مؤيد تماماً لقادة الثورة، وعليه خضع الملك فاروق لنصيحة على ماهر ووافق على التنازل عن عرشه لإبنه أحمد فؤاد الثاني[١٥].

وبالفعل وافق الملك فاروق على التنازل عن عرشه حيث توجه سليمان حافظ وكيل مجلس الدولة إلى قصر رأس التين ومعه وثيقة التنازل وقدمها إلى فاروق لتوقيعها، وكان هذا نصها: "نحن فاروق الأول ملك مصر والسودان لما كنا نتطلب الخير دائما لأمتنا ونبتغي سعادتها ورقيها، ولما كنا نرغب رغبة أكيدة في تجنيب البلاد المصاعب التي تواجهها في هذه الظروف الدقيقة ونزولا على إرادة الشعب، قررنا النزول عن العرش لولي عهدنا الأمير أحمد فؤاد وأصدرنا أمرنا بهذا إلى حضرة صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء للعمل بمقتضاه. "صدر بقصر رأس التين في ٢٦ يوليو ١٩٥٢"[١٦].

في الموعد المحدد في تمام الساعة السادسة وعشرون دقيقة مساء يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ غادر قصر رأس التين بالإسكندرية مرتديًا لباس أمير البحر على ظهر اليخت

الملكي المحروسة (وهو نفس اليخت الذي غادر به جده الخديوي إسماعيل عند عزله عن الحكم) وقد تعهد بأن يقوم بإعادة المحروسة فور نزوله في ميناء نابولي، وكان في وداعه علي ماهر باشا والسفير الأمريكي كافري وأخواته الأميرة فوزية والأميرة فايزة، وأطلقت المدفعية إحدى وعشرون طلقة لتحية له، وتم إنزال سارية العلم الملكي. وقد وصل اللواء محمد نجيب متأخرًا وذلك بسبب الازدحام ولحق بالمحروسة في عرض البحر وذلك حسب ما ذكره محمد نجيب في مذكراته[١٧].

الهوامش

(١)محمود محمد الجوهرى: قصور وتحف من محمد على إلى فاروق، دار المعارف بمصر، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص٨١.

(٢) حمدي عثمان: هؤلاء حكموا مصر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط٢، ٢٠١٢،ص٤٣٤.

(٣) محمود فتحى الالفى: العمارة الإسلامية فى مصر خلال القرن التاسع عشر، رسالة دكتوراة، كلية الهندسة، جامعة القاهرة، ص١٢.

(٤) نهى محمد عفت: القصور العلوية مالها وما عليها، رسالة ماجستير، كلية الهندسة، جامعة القاهرة، ٢٠١١، ص١٨.

(٥) محمود فتحى الالفى، مرجع سابق، ص١٦.

(٦) نفس المرجع السابق، ص١٨.

(٧) إلياس الأيوبي: تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا من سنة ١٨٦٣م إلى ١٨٧٩م، المجلد الأول، مكتبة مدبولي، ط٢، ١٩٩٦م، ص٧.

(٨) عبد الرحمن الرافعى :عصر اسماعيل، ج٢، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٩م، ٧٩.

(٩) نفس المرجع السابق، ص ٧٩

(١٠) محافظ الأبحاث، محفظة ١١٦، ١٦ يونيو ١٨٨٢م

(١١) سجلات الباب العالى، محفظة بتاريخ ١٣ ابريل ١٨٩٢ م

(١٢) محمود محمد الجوهرى: مرجع سابق، ص٨٥.

(١٣) لطيفة سالم : فاروق وسقوط الملكية في مصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠١٠م، ١٠٠٦ : ١٠٠٨

(١٤) نفس المرجع السابق، ص ١٠١٠: ١١١٤

(١٥) أحمد بهاء الدين :فاروق ملكا ١٩٣٦– ١٩٥٢م، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م، ص٢١٦

(١٦) محمد نجيب: كنت رئيساً لمصر، القاهرة، المكتب المصري الحديث، ط١، ١٩٨٤م، ص١٣٣:ص١٣٥

(١٧) نفس المرجع السابق، ص١٣٥، ص١٣٦.